19 me, année No 924

Le Caire 19 — 3 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ١٩ مارس سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

٦- الدين والسلوك الانسانى

للاستاذ عمر حليق

الطقوس الدينية :

اقتدى كاتب هذه السطور فى هذا الجزء من دراسته بالبروفسور واخ (١) وتصنيفه الاختبار الدينى فى ثلاثة هى العقائد والطقوس الدينية والنتائج الاجتماعية لكل منهما

ولقد عالجنا فيما سبق علاقة الاختبار الدينى بالعقيدة فلنحاول أن نتعرف الآن مكانة الطقوس والعبادات الدينية فى هذا الاختبار

ولنا أن نبدأ فنسجل أن هناك تواكلا وتكاليف بين العقيدة والطقوس المعبرة عنها . فالعقيدة والإيمان الصادق بها يوحى إلى الفرد والجماعة ألوانا من التعبير هى ما اصطلح الناس على تسميتها بالطقوس والعبادة، فالأولى يمكن أن تحسب (ولو على سبيل الدلالة) فى عداد النظريات والنشاط الفكرى والروحى، والثانية تعد من قبيل النشاط العملى (الجسمانى)

فى رأى البروفسور (والبس) (٢) أن الطقوس الدينية والعبادات ليست مجرد تقليد جاء بطريق الصدفة ، وإنما هو تعبير أصيل للعقيدة الدينية التى تتوخى أن تنفذ إلى كل مافى الكيان الإنسانى؛ فلا تقتصر على الاتصال والتأثير بالمشاعر الروحية الحاسة وإنما تتعمد الوصول إلى الناحية المادية (الفيزيولوجية) فى ذلك الكيان

وقد اصطلح علماء الانتروبولوجيا على تصنيف العبادات الدينية أربعة أصناف هى : —

(١) الحفلات والطقوس الدينية

(٢) الرموز

(٣) القدسات (الملموسة والمحسوسة)

(٤) الضحايا (بمعناها الدينى)(١)

والطقوس الدينية مكانة أصيلة فى السلوك الدينى. ولعل الخطأ الجوهرى فى حملة الطبيعيين والماديين على الدين مرجعه خلطهم الناحية المنطقية (النشاط الفكرى) فى الدين بالنشاط العملى (الجسمانى) الذى يعبر عنها كالصلاة وضحايا الأعياد والحفلات الدينية وما إلى ذلك من ألوان ذلك النشاط

ومما لا ريب فيه أن الطقوس الدينية على غرابة بعض ألوانها وشذوذه هى جزء جوهرى من الحياة الدينية ومتممة للناحية المنطقية والفكرية فى السلوك الدينى

(١) المرجع نفسه

(١) J. wash. Sociology of Religion.

(٢) W.D. wallis, Religion in primitive Society.

وقد حلل روبرت سميث هذه الصلة بين الطقوس والعقيدة الدينية تحليلا فى كتابه الشهير عن ديانات الساميين [١] وسنده فى ذلك بعض المحدثين من علماء الانثروبولوجيا منهم (لووى) و (مانيلوفسكى) [٢]

فقد وجد روبرت سميث أن فى اليهودية والكاثوليكية والأرثوذكسية الشرقية (الكنيسة البزنطية) ثروة من الطقوس والرمزيات ، بينما خلت الديانة الإسلامية منها. اللهم إلا فى ضحايا عيد الأضحى وبعض ما دخل على الإسلام من طقوس كتلك التى يمارسها فى بعض المواسم الخاصة أتباع الطرق الصوفية . ومما لا ريب فيه أن هذه الطقوس لم تكن فى صلب الإسلام وإنما وجدت سبيلها إلى بعض أتباعه عن طريق الديانات الآرية (الفارسية) والهندية . والطقوس فى الديانات الآرية كالبوذية والبرهمانية والزرادشتية تؤلف عنصراً رئيسيا بارزاً فى الحياة الدينية للجماعات التى تدين بها

وخلاصة القول فى تمازج العقيدة الدينية بالطقوس المعبرة عنها وتكافلها وتضامنها فى توجيه السلوك الدينى — خلاصة القول أن الطقوس تختلف باختلاف العقيدة والمكان والزمان . وقد تكون هذه الطقوس فى حياة جماعة الناس منسقة لها طابع تقليدى خاص يعبر عن روح الجماعة. وقد تكون فردية يصوغها المؤمن فى قالب شخصى فتكون معبرة عن انفعالاته الخاصة

وفى تاريخ الديانات صراع مزمن مستمر بين الطقوس التقليدية التى تعبر تعبيراً جماعيا (نسبة إلى الجماعة) وتلك التى لها طابع فردى . ومن هذا الصراع نشأ الإلحاد والمدارس المتطاحنة التى عالجت مسألة الدين عقيدة وسلوكا . وهذا الصراع كان على نوعين : —

الحادى ينفر من الدين وينفر الناس منه . ونوع آخر إصلاحى أهدافه الخروج على التقاليد والسعى لصياغتها فى قوالب تختلف باختلاف اجتهاد المصلحين فى تفهم وظيفة الدين

ومهما يكن من الأمر فى هذا الصراع ، فالذى يعنينا منه فى هذه المرحلة من بحثنا هـــذا هو أن نقرر ما سبق أن قرره (دير كهايم) الذى لم يكن همه أن يتعرف على طبيعة هذه الطقوس الدينية بقدر ما كان يرجوه من إدراك لفحوى القيم الروحية والمعانى والمثل الأخلاقية التى تمثلها وترمز إليها وتعبر عنها [١]

وعلى ضوء علم النفس الاجتماعى فإن للطقوس الدينية كذلك ناحية إيجابية أخرى . فقد كتب أحد فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية [٢] فى معرض دفاعه عن التقاليد التى احتفظت بها الكنيسة الكاثوليكية منذ نشوئها وانتقاد البروتستانتية الحديثة لهذه التقاليد فقال :

« إن المسيحى بفرده ليس مسيحيا فقط ، وهو يعنى بذلك أن اقتصار الاختبار الدينى على الفرد دون الجماعة لا يفى بالنتائج الاجتماعية التى ينطوى عليها الاختبار الدينى والتى هى من الوظائف الأساسية للدين »

فصلاة الجماعة فضلا عن وظيفتها الاجتماعية من حيث أنها تجمع المؤمنين على الفضيلة فى صعيد واحد فإن لها وظيفة نفسانية (سيكولوجية) كبيرة النفع

فإن التعبير المشترك بين الجماعة عن المشاعر الروحية إثبات لحقيقة هذا الشعور . فالمرء إذا خلا لنفسه يحاسبها ويستعرض أمامها مشاكله الروحية والاجتماعية فقد يميل إلى القنوط ويبالغ فى عجزه أو مقدرته على مواجهة هذه المشاكل. والمرء مهما ارتقت مداركه وإحساساته واطلاعه على نواحى الخير والشر فى السلوك الإنسانى عاجز عن التعرف على حقيقة مكانه فى الكون؛ فمشاكل الكون النفسانية والمادية والاجتماعية معقدة وعرة المسالك . فإذا تسنى للمرء أن يندمج فى جماعة من الناس تشعر بما يشعر وتبحث عما يبحث من الطمأنينة والرضى فهو لا شك مرتاح ومستكين. والحياة اليومية أقسى من أن توفر للفرد جوا يستطيع

(١) W R Smith Religion of the Semites

(٢) B Nasilowski Magic Science and Religion

(١) راجع المقالة الثالثة من بحثنا هذا فى مجلة الرسالة

(٢) H. Scheler as quoted in Catholic principles of Religion

أن يخلد فيه إلى الطمأنينة والرضى . والساجد ويبوت الله والهدوء والسكينة التي تحيط بها توفر له ولإخوانه المؤمنين ذلك الجو المنشود يستوحي القدرة منه على التأمل ويستمد الشجاعة الأدبية ويحاسب نفسه على الصالح والطالح. فصوت الله جل جلاله يستدعي الخشوع والانطلاق من قيود النفس والمادة

فإذا استطاع المريض أن يتلمس في خجل واستحياء نوعاً من الطمأنينة في عيادة الطبيب النفساني يستلهمه علاج النفس من آلامها فإن بيوت الله أرحب صدرا وأكثر مهابة . ففي كل فقرة من آيات الذكر عظة وفي كل آية حكمة وبلاغة يتراجع أمامها خجلا واستحياء علم الطبيب النفساني . وبعد فإن علم النفس لا يعالج إلا النفس القلقة المضطربة التي تفتقد أن العقيدة الراسخة فيها أصبحت فريدة العقد النفسانية والأزمات الروحية

والمرء حين يجد في بيوت الله من يشاركه هذا الالتماس ويرجو مثل الطمأنينة التي يرجوها يزداد ثقة وينطلق في محاسبة النفس والتماس العلاج

والبروتستانتية المعاصرة مثلا تفخر بأنها تجاري التطور في الحرية الفردية ، وأن هذه الحرية يجب أن تشمل الدين كما شملت السياسة والاقتصاد (١) ولذلك أطلقت العنان للمؤمنين فانتهجت كل جماعة وسيلة جديدة من وسائل الاختبار الديني

وإذا جاز للمعلمين على حاضر البروتستانتية أن يكبروا مساهمتها في إطلاق قيود الفكر المسيحي من جمود القرون الوسطى فإن لنا أن نسجل هنا أن هذه المساهمة قد أولت في كثير من الحالات قلقاً فكريا وروحا عاطفيا انتهج في الآونة الأخيرة نهجين : — نهجا وجد في القانون المدني وآدابه ومثله العليا استعاضة عن الدين فلم يشف غليله ، وإنما أشكل عليه الأمر كما تشهد بذلك المشاكل النفسانية العميقة التي تعيش في الشعوب البروتستانتية . والنهج الثاني عكوف عن هذا الانطلاق المتطرف وتحديده بقيود أسسها إحياء الاختبار الديني على أساس السلوك الجماعي لا الفردي

فالكنائس البروتستانتية في أمريكا وبريطانيا — وقد تأثرت بالحرية الفردية إلى أقصى حد — أخذت في الآونة الأخيرة تعلن عن بضاعتها في شتى أنواع الإغراء . فهي تنظم الحفلات الاجتماعية في المواسم الدينية وأيام الآحاد وتستهوي الناس المشاركة فيها بتنويع البضاعة . وهي بضاعة في جوهرها روحية فاضلة ولكنها مشوبة ببعض ما يتنافى ومهابة الدين

ولقد فطن الإنسان لهذه الناحية النفسانية في صلاة الجماعة ، ومع أنه أبقى على الحرية الفردية في العبادات إبقاء شاملا إلا أنه شرع صلاة الجمعة والأعياد وصاغها في قالب بسيط خلا من المؤثرات وأبقى على المهابة والجلال التي تليق بالدين ومقامه؛ وما ذلك إلا لأن الإسلام — وهو عقيدة إلهية راسخة — يعتمد على الإقناع أكثر من اعتماده على الترغيب والاستمالة . والمرء إذا اقتنع كبرت لديه الغاية وهانت الوسيلة

ومهما يكن من الأمر فإن العبادات (كما قال ماكورى) ليست مجرد وسيلة من وسائل الاختبار الديني فحسب بل هي فوق ذلك دافع من أهم الدوافع لاستمراره . فهي إذن بالرغم من تحامل بعض الدنيويين على غرابة طقوسها جزء جوهري من وظيفة الدين

وعالج السيد محمد رشيد رضا في كتابه « الوحي المحمدي » عبادة الفرد والجماعة في فصل من ذلك الكتاب تحت عنوان « التقوى الخاصة والعامة » وقابلهما فقال : —

« ان النور في العلم الذي لا يصل إليه طالب إلا بالتقوى هو الحكمة . فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم (٦٥ بـ ٢ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ومن يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا)

ومعنى التقوى العام عند السيد رضا هو « اتقاء كل ما يضر الانسان وفي نفسه وفي جنسه الإنساني القريب والبعيد وما يحول بينه وبين المقاصد الشريفة والغايات الحسنة والكمال الممكن » ولذلك قال العلماء إنها عبارة عن ترك جميع الذنوب والمعاصي وفعل ما يستطاع من الطاعات . وزدنا على ذلك اتقاء الأسباب الدنيوية المانعة من الكمال وسعادة الدارين بحسب سنن الله تعالى في الكون . . . ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا

(١) راجع webre Protestant Ethics ٢٤ ، ٣٦